بسم الله الرحمن الرحيم

رؤية تحليلية - انتفاضة ٢٠٠٠م تؤرخ لقضية فلسطين

مفصل تاريخي في مجرى الأحداث نحو طوفان الأقصى

نبيل شبيب

١٤ / ٧ / ٢٠٠٢م

المحتوى

مغزى الانتفاضة - مفصل تاريخي في مجرى الأحداث - مقدمات انتفاضة الأقصى

الانتفاضة بين التشكيك ووضوح الرؤية - بداية مبكرة للتشكيك ٠ غوغائية التشكيك

العقلانية المطلوبة - التضليل المرفوض - الشعوب والحكومات - صناعة الحدث التاريخي

تحرّر الإرادة الشعبية - موقع الانتفاضة من التغيير - واقعية انتحارية - معالم جديدة

تمهيد

نعايش لحظة تاريخية، ولا تقاس اللحظات التاريخية بساعات وأيام معدودة، إنما يمكن اعتبارها مفصلا من مفاصل التحوّل بين مرحلتين في مسيرة أحداث قضية فلسطين، التي لا نعتبرها هنا قضية جغرافية محصورة في بقعة من الأرض، وإن كان هذا الجانب من القضية هو المحور الأول والحاسم، بل هي قضية صراع شامل بأبعاد عقدية وحضارية وتاريخية وجغرافية، فضلا عن أشكال التعبير المباشر عنه سياسيا وعسكريا واقتصاديا.

ومن طبيعة مفاصل التحوّلات التاريخية أن ينطوي الحدث الآني على مؤشرات مخاض شديدة الاشتعال، فتثير في النفوس أشدّ درجات الألم الغاضب، وكذلك أن تظهر في أفق الأحداث تناقضات تجمع في وقت واحد ما بين إفرازات مرحلة راحلةٍ تحتضر وإرهاصات مرحلة مقبلة تولد.

مغزى الانتفاضة

أولا: ليست انتفاضة الأقصى "حدثا عابرا" من أحداث الصدامات السياسية أو صدامات العنف ليمكن تطويقه، بل ستؤدّي محاولات تطويقه إلى ازدياد اشتعاله وانتشاره، فانتفاضة الأقصى:

- لم تشتعل كغضبة شعبية محضة، أي كردّ فعل عفوي ووقتي محدود، على استفزاز إسرائيلي جديد، ومتكرر بصور متعددة كالغضبة الشعبية من استفزاز شارون باقتحام المسجد الأقصى، فهذه صورة من صور التعبير عن الانتفاضة الأعمق مضمونا ومغزى والأوسع انتشارا وتعبيرا عن نفسها..
- إنما كانت الانتفاضة حدثا تاريخيا يمثل حلقة أخرى من حلقات ثورة على انحراف وجهة التعامل مع الصراع المفروض على المنطقة.

ثانيا: لم تندلع انتفاضة الأقصى لتصحيح اتفاقات وحدود، بل لتصحيح مسيرة واتجاه.

- ولئن أعطت الانتفاضة الأولى السابقة شرارة الثورة من أجل تصحيح الانحراف على مستوى فلسطيني، وعلى ظنّ أهل مدريد وأوسلو أنه تم إجهاضها، فكذبتهم انتفاضة الأقصى وامتدادها..
- فانتفاضة الأقصى تعطي الآن شرارة الثورة من أجل تصحيح الانحراف على مستوى عربي، وقد يظن المتسابقون إلى مؤتمر شرم الشيخ وما سيليه أنهم طوقوها، وستكذبهم أحداث حتمية مقبلة.

ثالثا: وفي مقدمة ما يتميز به تصحيح المسار الفلسطيني والعربي عبر الانتفاضة، أنه لا يقتصر على جانب التصورات والفكر وصراع الاتجاهات النخبوي، بل نزل إلى الشارع واقعيا..

- وكانت الانتفاضة الأولى قد أبرزت الارتباط العضوي بين القضية والشارع الفلسطيني على درب آخر غير الذي سلكته سياسة المنظمات الرسمية آنذاك..
- وتبرز الانتفاضة الثانية الآن الارتباط العضوي بين القضية والشارع العربي.
- ويفرض منطق التاريخ كما تفرض معطيات القضية، أن نشهد آجلا أو عاجلا، حلقة أخرى من الأحداث تبرز للعيان مجددا الارتباط العضوي بين القضية والشارع الإسلامي أيضا، ربما بأساليب مشابهة أو عبر انتفاضة ثالثة أو بأي صورة أخرى، ولكن في سائر الأحوال ستكون النتائج أقوى رسوخا وأبعد مضمونا وتأثيرا بأشواط بعيدة.
- بل لا ينبغي في قضية فلسطين وتوقعاتها المستقبلية استبعاد البعد الإنساني الشامل المحتمل، فالمسألة اليهودية التي كانت منطلق المشروع الصهيوني كرأس حربة في الصراع الدائر فوق أرضنا، كانت بميلادها وبطبيعتها ونتائجها، مسألة غربية الموطن والهوية والأساليب والقوى الفاعلة، وبدأ شواظ نتائجها المرتبطة بعناصر الهيمنة والعنصرية والمادية يشتدّ تأثيرا ووضوحا في الضغوط التي يمارسها على المستويات الشعبية في الدول الغربية نفسها، ولا بد أن ينشأ عن ذلك رد تاريخي، آجلا أو عاجلا، وكلما اشتدت أساليب الهيمنة اليهودية ضغطا اشتدت درجات الاحتقان الاجتماعي والثقافي في اتجاه الانفجار. إنما لا يُستغرب أن تكون بداية الرد التاريخي في منطقة فلسطين وما حولها، فهي التي استهدفتها اليهودية العالمية وجعلت منها منطلقا لسواها، وفيها كانت النتائج أشد وطأة ودموية، وتأثيرا على أهل المنطقة.

ربما بدا الحدث مفاجئا في توقيته، وذاك من طبيعة أحداث التغيير في كل مفصل من مفاصل مسيرة التاريخ، أما من حيث المضمون وحتمية الوقوع، فقد كان منتظرا، وبالمقابل لا بد من انتظار الرد على الحدث أيضا، وأن يوضع بمختلف أشكاله المحتملة في الحسبان، وكما كانت مدريد وأوسلو ردا على الانتفاضة الأولى، يمكن أن يأتي الردّ الآن في صور عديدة غير صورة قمة شرم الشيخ المستعجلة، فهي –بحد ذاتها- لن تقدم كثيرا أو تؤخر. فالحدث أكبر وأوسع نطاقا، من حيث عمقه التاريخي ومغزاه المستقبلي على السواء، من إمكانية الإحاطة به بأساليب التطويق التقليدية وعمليات امتصاص الغضب المعتادة.

وتكمن قوته الفاعلة في أسباب ومعطيات عديدة، منها أنه لا يمثل ثورة سياسية أو حزبية أو مسلحة، فلا توجد لقوته الفاعلة بنية هيكلية يمكن تحديد معالمها وتوجيه ضربة لها، سواء على شكل طعنة في الظهر كما كان بعد مدريد وأوسلو، أو على شكل بطش مباشر، كما تجري الممارسات في المنطقة العربية والإسلامية عموما منذ عدة عقود دون جدوى.

إنّ انتفاضة الأقصى ثورة شعبية، فهذا ما تعنيه مثلا مظاهرات الجامع الأزهر واعتصام نقابة الفنانين في مصر، أو هذا مـا يعنيه مثلا آخر تلاقي مضامين معظم الكتابات والمساهمات في وسائل الإعلام –إلا القليل- مع مضامين اللافتات والتعليقات المرفوعة في مظاهرة المليونين في المغرب أو المظاهرات الحاشدة في العراق والسعودية، أو تلاقي مضامين خطب الجمعة، مع بيانات أحزاب علمانية ومنظمات كنسية.

مقدمات انتفاضة الأقصى

ثورة شعبية ولكنها متوقعة، كما كانت الانتفاضة الأولى ثورة شعبية متوقعة، وفي الحالتين كان الغليان محتقنا ينتظر الشرارة ليتخذ مساره ويقوض ما سبقه من معطيات فرض الأمر الواقع ميدانيا كما يصنع العدو الإسرائيلي، أو بأسلوب فرض الأمر الواقع كما يصنع من يحتكر لنفسه رؤية الحل المستقبلي ويحصره في تسوية يريدها شاملة دائمة محروسة أمنيا، ويضع من يعارضه في سجن فعلي أو فكري وإعلامي.

ومن طبيعة الأمور أو من سنن التاريخ أن كل طريق شاذ عن قواعد التاريخ ومنطقه، متمرد على القيم والمثل والأخلاقيات الإنسانية المشتركة، متناقض مع الحقوق والحريات الإنسانية الثابتة، كما هو الحال مع طريق كامب ديفيد ومدريد وأوسلو، أن ينتهي إلى انفجار، وليكن اسمه ثورة أو انتفاضة أو ما شاؤوا لذلك من تسميات.

وإذا كان من المحتم أن تنشأ بعد كل حدث تاريخي مفصلي من هذا القبيل، مرحلة مختلفة عمّا سبقها، فيمكن استشراف معالم المرحلة المقبلة، عبر إلقاء الضوء على معالم المرحلة السابقة وبالتالي رؤية ما يستهدف الحدث تغييره.

ومع إدراك تداخل المراحل التاريخية على الدوام في بعضها بعضا، تبرز معالم تصلح لتأريخ بداية كل مرحلة ونهايتها، ويمكن أن نعود بالمرحلة السابقة إلى إرهاصاتها الأولى بعد حرب ١٩٦٧م، فذروتها المبدئية في كامب ديفيد ١٩٧٨م، ثم امتدادها الأفقي بعد غزو الكويت فحرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠م.

لقد كان "الانتصار" العسكري الإسرائيلي الساحق عام ١٩٦٧م بداية النهاية لفرض الوجود اليهودي الصهيوني بفلسطين وما حولها، بل كان إنذارا صارخا بأن رد الطرف الآخر أصبح حتميا بمنطق التاريخ، بغض النظر عن الكيفية والتوقيت، وليس المقصود بذلك الرد العسكري المحض، فقضية فلسطين لم تكن يوما مجرد قضية مواجهة عسكرية، أو مواجهة سياسية، إنما بدأت الصهيونية غزوتها بالأسلوب الاستيطاني الاستعماري المعروف عن سائر التحركات الاستعمارية، تحت عنوان اكتشاف أمريكا وأستراليا قبل قرون، وحتى توطين البيض في الجنوب الافريقي، وهذا بغض النظر عن الشعارات المرفوعة، صليبا كانت أم توراة أم دعاوى علمانية، وبغض النظر عن اختلاف تقويم الخطر من جانب الطرف الآخر أيضا، ووصفه بالخطر العقدي، أو القومي، أو الحضاري أو سوى ذلك؛ العنصر المهم من وراء ذلك، هو أن الوجود البشري في فلسطين وما حولها، هو المهدد مهما كان نوع الاتجاه المسيطر أو المنتشر، دينيا أم علمانيا وإسلاميا أو قوميا أو وطنيا وقطريا أو سوى ذلك، ولهذا وجد تعبير "صراع الوجود" انتشارا بين سائر الاتجاهات.

على هذه الأرضية يمكن الإيجاز في تحديد المعالم الأخرى للمرحلة التاريخية السابقة من أحداث القضية:

١- كسر الإرادة القومية العربية في الساحة العسكرية عام ١٩٦٧م.

٢- التحول فور الهزيمة العسكرية إلى طرح شعار إزالة آثار العدوان الذي اختزل مطلب التحرير في نطاق الأرض المحتلة عام ١٩٦٧م، فكان بمثابة الإشارة الأولى باتجاه الاستعداد لتقبل وجود الكيان الإسرائيلي على الأرض الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م على الأقل، أو كان بمثابة طوق النجاة للكيان الإسرائيلي المعزول إقليميا، المضطرب داخليا، المعاق اقتصاديا.

٣- ثم كان تبني العمل الفدائي من جهة (وضبطه) في منظمة التحرير الفلسطينية من جهة أخرى، ثم اعتبارها هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وبالتالي تقسيم القضية المصيرية المشتركة إلى قسم فلسطيني خاص بالفلسطينيين، وقسم عربي يتناول قضايا الحدود ومستقبل العلاقات.

٤- ثم كانت كامب ديفيد الأولى عام ١٩٧٨م التي كسرت الحاجز النفسي في وجه الصلح وألغت قيمة معاهدة الدفاع العربي المشترك بإخراج مصر من الميدان، وهو ما ظهرت نتائجه في اجتياح جنوب لبنان.

٥- وكانت النقلة التالية بغزو الكويت وحرب الخليج الثانية، التي أدت عربيا إلى إلغاء أرضية المشروع العربي لصالح أرضية مشروع الشرق الأوسط وأخرجت الكيان الإسرائيلي من عزلته الدولية ومن حصره في نطاق العالم الغربي من قبل، كما حولته إلى شريك مفاوضات، وحولت العراق إلى عدو داخلي بديل للدول العربية.

٦- ثم كانت مسيرة أوسلو التي قضت بدورها على أرضية التفاوض العربية المشتركة حتى في حدود التسوية السلمية أو ما يمكن وصفه بالتسليم للهيمنة الإسرائيلية والزعامة الأمريكية في المنطقة.

وجميع ما سبق تطورات قابلة أن تتبدل اتجاهاتها مضمونا ومن حيث النتائج، ويأتي التبدل عادة نتيجة تبدل موازين القوى وتقلبها المعتاد، أو مع التبدل المحتوم في الاتجاهات والتيارات السياسية التي تصنع القرار. ولكن الأهم من سائر ما سبق هو ما رافقه ويمكن وصفه بأنه حملة كبرى لغسيل الدماغ العربي جماعيا، شعبيا وفكريا، أو بتعبير آخر: إيجاد إنسان عربي آخر، غير الإنسان الذي يرفض الخضوع والتسليم، وليكن اسمه إنسانا "عقلانيا..

موضوعيا.. منهجيا.. واقعيا.. ملتزما بالشرعية الدولية" إلى آخره، فالمهم من وراء ذلك أنه الإنسان الذي يتقبل استمرار العدوان واستمرار الهيمنة، وهذا -وليس تقدم العرب وأمنهم وسلامتهم ومصالحهم وتعاونهم وتحضرهم، إلى آخره- هو المحور الأهم في سائر الأهداف اليهودية والأمريكية، بل قد تختلف الطبقة التي تصنع القرار أوروبيا وروسيا مع الصهيونية العالمية والزعامة الغربية الأمريكية حول الوسائل وبعض الأهداف، ولكن قد تلتقي على هذا المحور المشترك الهادف إلى صناعة إنسان عربي آخر بآلات تصميم وإنتاج غير عربية.

وهذا ما اتخذ صورا عديدة وسلك سبلا مباشرة وملتوية، ووجد أعوانا مما يوصف عادة بالطابور الخامس، وهو ما يحتاج إلى دراسات ثائرة على الطابع الروتيني الرتيب، وتحركات تبتكر وسائل مناسبة لإبطال أغراضه وإجهاض نتائجه المبدئية، وهنا كانت انتفاضة الأقصى بمثابة الشرارة الكبرى أيضا.

لقد شهدت المرحلة الماضية على سبيل الأمثلة دون الحصر:

١- الموجة التي شاع بين الناس تعبير التطبيع في الحديث عنها، وهو تعبير يتناقض بصورة صارخة مع المقصود، فالمقصود هو تحويل الشاذ إلى أمر طبيعي، وليس العكس، أي جعل العلاقات بين المعتدي والمعتدى عليه، والقاتل والضحية، والمغتصِب والمشرد، والمهيمن والمهيمَن عليه، علاقات طبيعية، مع استمرار الاعتداء والتقتيل والاغتصاب والتشريد والهيمنة.

٢- والأهم من ذلك ما يجري على مستوى المناهج المدرسية.

٣- والأهم من هذا وذاك ما يجري على أعلى المستويات السياسية والفكرية وحتى الجامعية، من تزييف المصطلحات ومضامينها، وتوظيفها لغير أغراضها، وإفراغها من مضامينها الأصلية، مثل مصطلحات الشرعية الدولية، والحقوق المشروعة، والسلام العادل، والحل الدائم، وما شابه ذلك

٤- وبالمقارنة مع عظم الخطورة فيما سبق، يبدو الدور المتبقي للإعلام محدودا نسبيا رغم أهميته الكبرى ومفعوله الخطير، فإما أن يدافع عن تصورات مفضوحة فلا يقنع أحدا، أو يساعد على خرق المحظورات والمحرمات، حتى يتم الاعتياد عليها، أو يكتفي بإلهاء الفئات المستهدفة بالإعلام عن قضايا مصيرية بأفلام عتيقة، وعن أحداث لاهبة بحفلات راقصة، باسم الفن.

وعند التأمّل في هذه النقاط كأمثلة، يتبين سبب التحرك السياسي الضخم المضاد من نيويورك إلى واشنطون إلى العواصم الأوروبية وحتى موسكو.. تحت عنوان تطويق الانتفاضة، وسبب التجاوب في بعض العواصم العربية الماضية على طريق كامب ديفيد ومدريد وأوسلو والمتورطة في النتائج أكثر من سواها، تجاوبا حذرا حينا مضطربا حينا آخر ومتهورا حينا ثالثا، مع ذلك التحرك السياسي ولكن تحت عنوان حماية الدماء والمقدسات، فقد أدركت الأطراف المعنية جميعا أن انتفاضة الأقصى وما رافقها على امتداد الأرض العربية والإسلامية لم تزعزع عسكريا الموازين الشاذة حاليا، ولا أوصلت حتى إلى طرد سفير إسرائيلي، ولكنها زعزعت دعائم ما يقوم عليه هذا كله، فوجهت ضربة إلى نتائج الجهود المبذولة على مدى عشرات السنين الماضية لصناعة إنسان عربي آخر صناعة أجنبية، فوصل الخطر إلى أركان هذا البنيان الصهيوني الأمريكي الغربي بمشاركة عربية وفلسطينية.

وزادت نتائج الانتفاضة على ذلك فأضافت جوانب بالغة الأهمية. سيان أين تتحرك التطورات الراهنة، أو محاولات إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فستبقى أمور أساسية ثابتة يمكن تعداد عناوينها وتحتاج في الأصل إلى تفصيل ومن ذلك:

١- تأبين اتفاقات أوسلو وسائر ما تفرع عنها بعد العجز عن تحقيق الحد الأدنى من المطالب الفلسطينية المتقلّصة على كل حال أو الممسوخة منذ اللحظة الأولى لتوقيع أوسلو.

٢- وضع التسوية السلمية في موضعها الحقيقي: مشروع صهيوني أمريكي للهيمنة على المنطقة.

٣- كسر الحواجز القطرية والإقليمية شعبيا في يقظة لم يسبق لها مثيل منذ العصر الذهبي للقومية العربية.

٤- اجتياح التصورات والفعاليات الإسلامية لكل ما سواها وانضواء غيرها تحت شعاراتها.

٥- كسر حاجز الخوف النفسي لدى الشعوب وعلى صعيد معظم الفعاليات الثقافية والفكرية والمهنية والفنية والإعلامية للتعبير عن إرادتها من وراء سائر المواقف السياسية، المرتبكة حينا، المتخاذلة حينا آخر، والمتخاذلة حينا ثالثا، على المستويين العربي والدولي.

٦- القضاء على تصوير الولايات المتحدة الأمريكية بالدولة الصديقة، أو الشريك النزيه، أو راعية السلام، وتعرية موقعها في المنطقة، المندمج اندماجا عضويا في المشروع الصهيوني الغربي.

٧- تحرك السياسة العربية متمثلة في الحكومات الرسمية ولأول مرة -باستثناء قمة ١٩٩٦ م في غياب العراق- للاستجابة للضغوط الشعبية وعقد لقاء القمة الشاملة، وإن تم تأخير موعدها عما كان ضروريا وممكنا، ورغم الإرادة الأمريكية التي بقيت حتى الآن في موقع صانع القرار العربي.

ولا يتسع المجال للتفصيل، فعندما تدبّ الحياة في الشعوب، لا يمكن أن تعترض طريقها قوة في الأرض، ذاك ما تثبته دروس التاريخ، وذاك ممّا صنعته انتفاضة الأقصى.

الانتفاضة بين التشكيك ووضوح الرؤية

هل يمكن أن توصل الانتفاضة إلى الاستقلال حتى في حدود الطرح السياسي الذي سبق وهبط بهدف التحرير فحصره في نطاق أرض مغتصبة عام ١٩٦٧م؟ قد يأتي الجواب سريعا بالصورة التي تنقلها وسائل الإعلام على ألسنة عدد كبير من أبطال الانتفاضة من فتية ورجال ونساء، وعلى ألسنة أمهات المجاهدين والشهداء، فيقول أحدنا تلقائيا: لن تتوقف الانتفاضة إلا مع الاستقلال أو ظهور معالم واعدة لتحقيقه. ويمكن استيعاب هذا الجواب على لسان المجاهد في ميدان الجهاد، ولكن عندما يتردد على لسان المتضامن عن بعد، لا سيما عبر مواقف التعقيب والتحليل كما تنقلها وسائل الإعلام يوميا، فقد يكشف هذا التبسيط للهدف أو الأمل، والمبادرة إلى تأكيده وتأييده، قدرا لا بأس به من الحماس الوجداني المشكور، وإن كان يواري جهلا بطبيعة الأمور ومجرى الأحداث.

بالمقابل إنّ الإجابة على السؤال المذكور بصورة معاكسة، أي عبر القول مثلا باستحالة أن توصل الانتفاضة إلى الاستقلال، هو بالمقابل سلوك أشد خطرا، ويكشف عن قدر لا بأس به من الانهزامية التي لا علاقة لها بالتقدير الموضوعي للحدث، هذا فضلا عن كشف جانب كبير من الجهل بعمق المتغيرات التاريخية الجارية، والتي كانت الانتفاضة وما تزال في محورها، والمحرك الأول لها.

بداية مبكرة للتشكيك

بعد أقل من شهرين من انطلاقة الانتفاضة من ساحة المسجد الأقصى، بدأت أصوات معروفة تظهر على السطح بمواقف التثبيط والتخذيل والتشكيك، وإن صدر بعض ذلك بعبارات منمقة تنتحل أصوات المشفقين حينا، والمعلمين الناصحين حينا آخر. وكانت أصوات التشكيك تلك كسواها من أصوات التطبيع قد همدت، ولو لبضعة أيام أو أسابيع، إذ أفلست أمام الحدث الذي فاجأها انفجاره، بعمق مدلولاته، كما أخمدها حجم التضحيات مع عمق مفعولها في الأرض العربية والإسلامية. ولكن يبدو وكأن أهل التشكيك استعادوا أنفاسهم من جديد، فعادوا إلى ممارسته، تجاه كل ما يتمرد على روح التسليم لهيمنة سلام أمريكي-صهيوني في الأرض العربية والإسلامية. وليس مجهولا أن هذا التمرد بالذات هو جوهر الانتفاضة الحالية، وهو الروح التي نشرتها بين المحيطات الثلاث.

منذ ذلك الحين إلى الآن، كان من المفارقات المثيرة في تشـــكيك المشـــككين، أن ادعاء التعقل في تقويم جدوى الانتفاضة تبريرا للتشكيك، يقابله تكرارهم هم أنفسهم لمواقف قديمة تكرارا إيديولوجيا غوغائيا، بل غوغائيا فقط في غالب الأحيان، إذ لا يستند حتى إلى فكرة أو تصور عقائدي على الأقل، كما يصنع أصحاب الإيديولوجيات في الأصل.

إن تلك المواقف الغوغائية هي عينها التي كان يتكرر ذكرها على امتداد عشرة أعوام مضت قبل الانتفاضة أو أكثر، أي من قبل كامب ديفيد الســـاداتية، وكانت وما تزال تدور حول محور واحد، هو الزعم القائل إن كافة السبل أمام الفلسطينيين والعرب والمسلمين مسدودة إلا السبيل التي يقال إنها ستوصل يوما ما، وعبر المفاوضات -التي ظهر بما فيه الكفاية أنها مليئة بالألغام القاتلة- إلى سلام يوصف بالعادل، وظهر بما فيه الكفاية أنه سلام جائر حتى وإن وصل دعاته منه –على سبيل الافتراض الجدلي- إلى أقصى أهدافهم المعلنة، بعد تراجعهم مسبقا عما هو أعظم حجما ومضمونا ونتائج مما يطالبون به عبر تلك الأهداف الهزيلة.

سيان بعد ذلك هل حمل ذاك السبيل الأوحد عنوان مدريد أو أوسلو أو أي عنوان آخر، فالأهم من العناوين أنه ينطوي على ترســـيخ خطأ تاريخي بالغ الخطورة، هو اعتبار مختلف أشـــكال المقاومة للمشـــروع الأمريكي-الصـهيوني في المنطقة أمرا مرفوضـا ولا فائدة منها، وهو قول أصـبح ينطلق في هذه الأثناء من خطأ تاريخي آخر تمثله مقولة الخيار الاستراتيجي الوحيد هو خيار السلام.

غوغائية التشكيك

إن التشكيك في الانتفاضة يصدر جملة وتفصيلا عن حصر المشككين أنفسهم داخل هذه المقولة التي أصبحت بمضمونها وأسلوبها أشدّ غوغائية، من أي مقولة أخرى عرفتها المنطقة حتى اليوم.

المشكلة ليست في التشكيك في "جدوى" الانتفاضة، ولكن في أن هؤلاء يرفضون مسبقا الانتفاضة بحد ذاتها وبفعالياتها الشعبية، وقد لا يمضي المشككون إلى درجة التجرؤ على إنكار سمو التضحيات والبطولات فيها، ولكن التشكيك يتخذ قالبا أوسع نطاقا وأبعد خطرا، ويتمثل في اعتبار طريق النضال أو الكفاح أو الجهاد أو القتال – سمّها ما شئت- طريقا مرفوضة، واعتبار خيارها خيارا مستحيلا علينا، والأغرب –أو الأوقح- من ذلك، أن يقترن هذا الادعاء بالقول إن العنف سلوك منبوذ في عالمنا المتحضر المعاصر، الذي يفضل بدعواهم أساليب

الســـلام والمفاوضـــات والوقاية من الأزمات، ففي هذا الزعم درجة قصـــوى من التجرؤ على قلب الحقائق قلبا منهجيا من جانب من يدعون المنهجية والعقلانية، يتجاهل بصـورة عجيبة ما يوجد من مخازن للأسـلحة النووية والحيوية والكيمياوية القديمة والحديثة، وما يبتكر يوميا من أسـلحة جديدة، وما تجري تجربته في حرب عدوانية بعد أخرى، لا سيما من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، خارج حدودها الجغرافية كما هو معروف.

أين العقلانية والمنهجية إذن عند رؤية خيار القوة مطروحا في حاضر عالمنا المعاصر ومستقبله، في كل مكان، وبصورة تدوس الشرعية الدولية بالأقدام، ثم الإصرار على رفض خيار ممارستنا نحن لما يتوفر من أسباب القوة المؤثرة المحدودة كما في الانتفاضة، أو أسباب القوة الأكبر شأنا، أي تلك المهدرة في الحفاظ على أوضاع قمعية في بلدان أخرى، تعمل حكوماتها على المشاركة في خنق الانتفاضة وخنق قضية فلسطين نفسها، وخنق الانتفاضات الشعبية ما بين المحيطات الثلاث، والتي ولدت في رحم انتفاضة الأقصى.

أين العقلانية والمنهجية في الإصرار العجيب على رفض مجرد الإعداد من أجل امتلاك القوة الأوسع والأشد تأثيرا، لتكون يوما ما -كما ينبغي أن تكون- خيارا عزيزا في نطاق خياراتنا المستقبلية لتحقيق المصالح المشروعة والأهداف العزيزة؟

أين العقلانية أو المنهجية في ذلك وما الذي يعنيه هذا الرفض بأسلوب التشكيك أو الأسلوب الصريح المباشر، سوى أنّ المطلوب من أمتنا، شعوبا وحكومات هو التسليم، ولا شيء سوى التسليم، مهما وُضع له من عناوين مزيّفة تهوّن من شأنه؟

العقلانية المطلوبة

إن ظهور التشكيك في الانتفاضة التي تجسد صورة من صور التمرد على طريق التسليم، إنما يعبر –إذا أحسنا الظن بأصحابه ودوافعهم- عن عدم استيعاب ما صنعته الانتفاضة، فهي لم تقوض البقية الباقية من مشروع أوسلو وما ارتبط به فحسب، بل قوضت أيضا تلك المقولة التي انحرفت بمسار القضية والتعامل معها منذ سنوات وسنوات، وما يزال كثير من المسؤولين يرددها رغم عواقبها الوخيمة، بصدد ما يسمى خيار السلام الاستراتيجي، وما طرحوه إلا بعد أن امتنعوا هم عن الإعداد لسواه، وسدوا السبل أمام سواهم أن يعد لسواه، فإذا كان خيارا يوصل إلى تسليم مرفوض وخضوع جماعي خطير، فإن رافعيه، يحملون المسؤولية عنه جملة وتفصيلا، بعد أن جعلوه الخيار الأوحد، فلم يعد خيارا ذاتيا كما يزعمون، بل تحول إلى قيد ذاتي استراتيجي وتكتيكي على السواء.

ما الذي يعنيه هذا الخيار وما الذي يصنعه من تشكيك في الانتفاضة ومختلف أشكال المقاومة المسلحة وغير المسلحة؟

ما الذي يعنيه عندما يقترن بتجاهلٍ يتعامى تعاميا مذهلا عن الحقائق الظاهرة للعيان، عالميا وإقليميا، من حيث عدم إسقاط الخيارات العسكرية، إسرائيليا، ولا أمريكيا، ولا أطلسيا، ولا دوليا، لا في التعامل مع قضية فلسطين، ولا في التعامل مع سواها من قضايا الإسلام والمسلمين؟

ما هو المطلوب إذن في ظل هذه المعطيات الخارجية التي تواجهنا، عندما يرفض الرافضون الجهاد والقتال والكفاح والنضال وغيرها من الكلمات التي أصبحت تُجمع في بلادنا تحت عنوان التهور، وهي عند سوانا جزء من مخططاته ومشاريعه التنفيذية، الفكرية والسياسية والتوجيهية والتعبوية؟

هل المطلوب إسقاط عنصر استخدام القوة فلسطينيا وعربيا وإسلاميا فحسب؟

هل يقدر الماضون على هذا الطريق عواقب ذلك بالنسبة إلى المنطقة بمجموعها، بما فيها تلك الرقعة المباركة حول المسجد الأقصى؟

هذا الذي يقولون به، ويضعون عليه زورا رداء العقلانية، يستدعي رفضهم هم ورفض مقولاتهم، ولا يستدعي رفض العقلانية بحقيقتها دون تزييف، أي من حيث أنها نظرة منهجية تنطلق من تأكيد لا يتزعزع للثوابت، وللأهداف الأصيلة، ورؤية الإمكانات رؤية واقعية، وتحديد الطريق لتطويرها وتنميتها واستخدامها باتجاه تلك الأهداف والثوابت، والعمل تبعا لذلك لا التراجع عن الثوابت بدعوى ضآلة الإمكانات الراهنة، ولو كانت الواقعية التي عرفتها الأمم الأخرى كذلك، لما تحركت عجلة التاريخ بحدث كبير أو صغير، بل ولما وصلت الغزوة الصهيونية الحديثة إلى ما وصلت إليه في الوقت الحاضر.

إن التأكيد على روح التمرد والرفض في هذه الانتفاضة، لا يعني أن نتجاهل أو ندعو إلى تجاهل حقيقة موازين القوى الراهنة، ولا ما تقول به المدارس السياسية والعسكرية بشأن بلوغ الأهداف عن طريق الجمع بين عدد من الوسائل في وقت واحد، كما لا نتجاهل الظروف المعيقة الراهنة في المنطقة.

التضليل المرفوض

يوجد فارق كبير بين

- تقويم الانتفاضة تقويما هادفا مع تقويم موقعها على أرضية قضية فلسطين وما تمثله كصيغة من الصيغ لأداء واجب مصيري وحتمي لرد هجمة عدوانية أجنبية، صهيونية-أمريكية وغربية، على المنطقة بمجموعها،

- وبين تقويم الانتفاضة أو زعم تقويمها بالحديث عنها حديث التشكيك في جدواها، لا سيما وأن هذا التشكيك ينطوي على عملية تضليل مزدوجة، فهو تضليل من حيث المنطلقات التي يستند إليها الاستغناء عن فلسطين عام ١٩٤٨م، وتمسكا بذاك الخيار الاستسلامي الاستراتيجي، وخضوعا لتبعية أجنبية للقوة الأمريكية والصهيونية دون جدال.

عملية التضليل مزدوجة باستنادها إلى هذه المنطلقات وكأنها مسلمات مفروغ منها، لا داعي لنقاشها أصلا، مع أنها خليط من حق يراد به باطل وجملة مغالطات لا تُغتفر، كما أنها في الوقت نفسه تضليل من حيث النتيجة التي يريد المشككون الوصول إليها، سواء طرحوا ما لديهم بصيغة تساؤل مقترن بالشفقة والرثاء تجاه الضحايا، أو كان طرحهم بصيغة الحديث المنهجي الموضوعي الذي يزعم التزام التعقل رغم الإحساس بالألم.

بل ومن وجوه التضليل اتباع هذا الأسلوب أو ذاك من أساليب الطرح، ويجب عند تقويم مثل تلك الأقاويل، النظر في جوهرها وحقيقة ما يمكن أن تؤدي إليه، مع عدم الالتفات إطلاقا إلى أسلوب الإخراج لا سيما وهو يقترن بإظهار مشاعر الشفقة أو ادعاء المنهجية، فالشفقة الصادقة أو الكاذبة، والمنهجية الحقيقية أو المزعومة، لا يبدلان

شيئا من حقيقة الموقف المرفوض جملة وتفصيلا والمتمثل في حصيلته في التنكر للانتفاضة، أي التنكر لصورة من أسمى صور التضحية في طريق العمل على تحرير الأمة بالعمل على إحيائها، وجدانا وطاقة وإعدادا وعملا وجهادا.

إننا في مواكبة الانتفاضة وأحداثها في حاجة إلى الواقعية القائمة على وضوح الرؤية على المستوى الفلسطيني القطري، والعربي القومي، والإسلامي الشامل. في حاجة إلى ذلك على صعيد الانتفاضة كحاجتنا إليه في أي قضية أخرى مشابهة من حيث أبعادها التاريخية ونتائجها القريبة والمستقبلية، وبما يبين الهدف من الانتفاضة، وموقعها في مسيرة الصراع الشامل في المنطقة، ولا نعني الاقتصار بذلك على تلك الزاوية الضيقة، كمشكلة التشكيك أو الرد عليه في مرحلة زمنية ما وظروف مؤقتة ما، لا سيما وأن الأخذ والرد هنا سلوك لا يحقق أبعد من الانشغال بأمر جانبي عن الأمر الأساسي، ذلك أن للمشككين قدرة غريبة على ابتكار حجة جديدة كلما سقطت حجة قديمة وأفلست حملة تشكيك سابقة، وليتهم يوظفون هذه الطاقة في الطريق الصحيح، وعلى أي حال فإنما يسقط مفعول التشكيك تلقائيا عند توفر وضوح الرؤية كما ينبغي.

نحتاج إلى وضوح الرؤية كواجب مفروض من حيث الأساس، بوجود المشككين وغيابهم، وبما يشمل رؤية المنطلقات والأهداف المرحلية والبعيدة، والموازنة بينها وبين الممكن المتوفر، والمطلوب المفتقد الآن وسبل توفيره، وبما يشمل تحديد الثغرات ونقاط الضعف، لغرض واضح بين هو العمل على سدها والتعويض عنها؛ وليس للتسليم بالدعوى القائلة إنها ثغرات كبيرة لا تُسدّ، وهنا يكمن الفارق الرئيسي مع ما يصنعه التشكيك، عندما يجعل من النواقص والثغرات ونقاط الضعف، أسبابا وذرائع للتثبيط والتخذيل بدلا من منطلقات تستدعي استثارة مزيد من القوى من أجل التصحيح وسد الثغور وتقديم الدعم الفعال.

الشعوب والحكومات

بين أيدينا معطيات منها ما يطرح وجهين رئيسيين ومتكاملين للانتفاضة الفلسطينية:

١- الوجه الأول هو أن رأس الحربة في فعاليات الانتفاضة موجه (فقط) إلى ساحة المواجهة الميدانية المباشرة مع العدو المشترك. هذا ما انبثق في الدرجة الأولى عن نهج المقاومة الإسلامية الفلسطينية، فهي التي ثبتت عبر الانتفاضة الأولى، ثم من بعد حصارها بمسيرة أوسلو حتى اليوم، مبدأ راسخا لا تتزحزح عنه، وتجنبت به أخطاء العمل الفدائي من قبل، فلا مواجهة إلا مع العدو الصهيوني، ولا انزلاق تحت أي شعار أو إغراء إلى ممارسات تفضي إلى اقتتال فلسطيني أو تنصب في نزاع عربي، وكان الالتزام بهذا المبدأ صارما رغم التعرض لألوان الملاحقة والحصار والحرمان من حق ممارسة المقاومة المشروعة والمفروضة، ناهيك عن التعرض للاضطهاد والقمع وتمكين العدو من تنفيذ عمليات الاغتيال وسواها.

٢- الوجه الثاني هو أن مظاهر حدث الانتفاضة ككل وكذلك مظاهر التضامن الشعبي معها عربيا وإسلاميا، غير موجهة ضد أنظمة حكومية في بلدان عربية وإسلامية رغم حجم الرفض الشعبي الواضح للنسبة الأعظم من السياسات المتبعة في قضية فلسطين على وجه التخصيص، ورغم خيبة الأمل المتجددة من هوان المواقف الرسمية

تجاه مجرى الانتفاضة وتجاه وحشية العدوان الصهيوني المتصاعد كما تجسد ذلك الهوان المخزي في تدني مستوى نتائج القمم العربية والإسلامية، أي على أعلى مستويات صنع القرار.

لقد أصبح واضحا ومعروفا في هذه الأثناء أن الجهات المتضررة من الانتفاضة، هي العدو الاستيطاني الصهيوني والعدو الاستراتيجي الأمريكي، وبالتالي أصبح واضحا أن كل من يعمل على قمع الانتفاضة أو خنقها أو سد أبواب الدعم لها واستمرارها وتصعيدها، إنما يضع نفسه في خندق التبعية للعدو الاستيطاني والعدو الاستراتيجي، وذاك ما يسري في ميادين الفكر والتنظير وميادين الترويج الإعلامي والفني وما شابه ذلك، على بقايا من المطبعين والمنتفعين وبعض المتغربين دونما سبب ظاهر.

وهذه الجهات بالذات تحاول أن تلعب على وتر استعداء الحكومات على الشعوب وهو وتر حساس، أي أنها تعمل على تصوير كل تعبير شعبي حر عن معارضة معلنة ضد تراخي السلطات أو عجزها أو تخاذلها في مواجهة العدو الصهيوني والأمريكي، وكأنه مقدمة لثورة شعبية محتمة ضد وجود تلك السلطات من حيث الأساس.

القصد من إثارة تلك المخاوف في نطاق قضية فلسطين والانتفاضة بالذات قصد معروف أيضا، وهو دفع الحكومات إلى الحيلولة –بالوسائل الأمنية التقليدية- دون أن تجد هذه الانتفاضة ما ينبغي في الأصل أن تجده من دعم شعبي متواصل، عربيا وإسلاميا، مع ملاحظة أن هذه الدعم يصب في صالح دعم موقع الحكومات دوليا تجاه عدو استراتيجي كالولايات المتحدة الأمريكية، وهذا غير مطلوب أمريكيات بطبيعة الحال أيضا.

هذه المعطيات باتت واضحة من خلال رصد ما شهدته المنطقة منذ اندلاع الانتفاضة وربطه بما سبقها.. ولكن اقتصار فعاليات الانتفاضة واقتصار التضامن معها على مواجهة العدوّ الخارجي، لا يعني أن باستطاعة الجهات المسؤولة عن صناعة القرار فلسطينيا وعربيا وإسلاميا، الركون إلى إمكانية أن تتابع الطريق التي مضت عليها قبل الانتفاضة، ودون تغيير حقيقي، بدلا من الاكتفاء بكلام انفعالي، وإخراج معدل لمضمون عتيق، وربما بعض التحسينات الجانبية الطفيفة.

لا ينبغي للمسؤولين الإحساس بهذا الاطمئنان المخادع، بل ينبغي أن يتعاملوا مع المتغيرات الجارية، التي لا تفيد مواجهتها بأسلوب التجاهل أو التهوين من شأنها، أو بأسلوب الإيحاء بتراخي الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية والإسلامية نفسها وهدأة عنفوانها، وهذا ما يبدو مؤخرا أن بعض وسائل الإعلام بدأت تساهم فيه، بعد أن تميز بعضها عن تلك التي بقيت من البداية وحتى الآن في وادي اللهو والإلهاء، بعيدا عن الانتفاضة وشجون ضحاياها أصلا، وبعيدا عن واقع العرب والمسلمين بأكمله.

لا يمكن أن تركن الحكومات إلى أسلوب التجاهل بعد أن أصبحت الانتفاضة جزءا عضويا من متغيرات ذات أبعاد تاريخية ستؤثر قطعا على العلاقة بين الحكومات والشعوب ومستقبلها، وهنا لا بدّ من وضوح الرؤية والتفاعل الواعي، فالجهل أو التجاهل يمكن أن يسبب عواقب خطيرة، ومن أخطر ما ينشره أسلوب التشكيك السالف الذكر هو المخادعة للآخرين أو حتى مخادعة النفس عبر تسمية الأشياء بما لا ينطبق على مضمونها، كالقول مثلا إن الانتفاضة تستهدف الوصول إلى شروط أفضل في تسوية سلمية حتمية فحسب، أو القول هي من أجل المسجد الأقصى -فقط- فإذا تراجع الإسرائيليون عن موقفهم العدواني بصدده انتهت مهمة الانتفاضة، أو القول هي من أجل الانتقال بأسلوب المفاوضات إلى أسلوب آخر فقط لتكون المفاوضات برعاية دولية مثلا ولكن للأهداف العتيقة

ذاتها المفروضة من قبل عبر كامب ديفيد ومدريد وأوسلو، أو القول إن اللحاق بتلك الرؤية الأمريكية عن دويلة فلسطينية ممسوخة ضبابية الأسس والمعالم والمستقبل، تسمح بإسقاط هدف تحرير الأرض المباركة المستعمرة بما يشمل كل جزء قامت عليه المستعمرات، بدءا بمستعمرة تل أبيب حتى اليوم.

صناعة الحدث التاريخي

إن القاسم المشترك بين هذه الأقوال وأشباهها هو التضليل، فالانتفاضة التي لم تبدأ بقرار، لا تتوقف بقرار، ولم تعد تخضع لآلية اتخاذ القرارات بالأسلوب المفروض على الشعوب منذ زمن طويل، بل أصبح لها محورها الذاتي الذي يؤكّد بكل وضوح أنّها جزء من تمرد شعبي عربي وإسلامي شامل، على ما ساد قبل اندلاع الانتفاضة، في التعامل مع قضية فلسطين بالذات. إنّ الوعي بخطورة الأوضاع هو مصدر الحرص الشديد على تركيز المواجهة على الاحتلال الاستيطاني اليهودي باعتباره أصل البلاء في المنطقة، فجوهر الانتفاضة يقول بصريح العبارة إن إرادة الغالبية العظمى من الشعوب، من ساعة ميلاد الطفل مع الحجر في يده، حتى لقاء الله تعالى بانقضاء الأجل، استشهادا أو على فراش الموت ترفض المطروح حتى اليوم:

- ترفض على الصعيد النظري والفكري ما كان وما يزال في حكم أهداف ممسوخة ومنهج سياسي منحرف في القضية المصيرية
- وترفض على الصعيد التنفيذي الوسائل المعلنة أو على الأصح الوسيلة اليتيمة المعلنة ولم تتمخض في حصيلتها إلا عن توسل العدو أن يقبل بالتفاوض بشروطه على بعض أهداف المتفاوضين معه
- كما ترفض المطروح إستراتيجيا والمكبل بأغلال علاقات وارتباطات خارجية، شاذة نوعا ومضمونا عن سواها في ساحة السياسية الواقعية الدولية.

لقد قوضت الانتفاضة أركان أرضية سياسات أرادت قبل الانتفاضة اصطناع نظام إقليمي آخر للمنطقة، وهذا ما ينبغي أن يدركه كل من حمل ركنا من هذه الأركان، وما زال يحمله، من مسؤولين على مختلف المستويات القطرية الفلسطينية والقطرية العربية أو على المستويات المشتركة عربيا وإسلاميا.

فالإرادة الشعبية الناطقة عبر الانتفاضة وعبر مظاهر دعمها لا تعني حدثا عابرا ولا ترفض قيادة لتظهر قيادة أخرى مثلها أو أفضل منها قليلا أو أسوأ، ولا تعني وضع عنوان دولة بدلا من عنوان إدارة على مضمون لا يتبدل وبثمن أشد خطرا، ولا تقبل تحويل التضحيات إلى أرقام كما كان مع ضحايا الحروب الماضية في المنطقة، فقوة الانتفاضة الحالية هي في أنها أعطت الإرادة الشعبية رغم كل ما صُنع ويصنع لخنقها، القدرة على صناعة حدث تاريخي، بأبعاد واسعة النطاق، في الحاضر والمستقبل، ولم يعد في استطاعة من يعتبرون أنفسهم صناع القرار أن يمنعوا ما يحققه صانع الحدث التاريخي.

تحرّر الإرادة الشعبية

ليس المرفوض وفق الإرادة الشعبية المتمثلة في انتفاضة فلسطين والانتفاضة الشعبية الأشمل في المنطقة، مجرد شكليات أو انحرافات جزئية، وإنما:

١ - المرفوض هو مناهج اتُبعت على طريق كامب ديفيد ومدريد وأوسلو بمختلف التسميات والفروع وأساليب الإخراج، وبمختلف الإفرازات الجزئية والكبيرة عبر العقود الماضية، وسيان بعد ذلك هل تمخضت عن معاهدة سلام أو مكتب تجاري وهل حملت -زورا- وصف شرعية دولية أو سلام عادل أو حقوق مشروعة أو ثوابت وطنية، أم لا، وبتعبير آخر:

٢- الانتفاضة أسقطت مفعول تزييف هذه الكلمات التي تعني بمنطق وقائع التاريخ ووثائق القانون الدولي المعتبرة، أشياء أخرى كلية، غير تلك التي جرى ويجري الترويج لها تحت عناوين كامب ديفيد أي التسليم بصلح انفرادي، ومدريد أي التسليم بصلح جماعي، وأوسلو أي التسليم المباشر على مستوى وطني وجغرافي.

٣- لهذا أصبح المرفوض من خلال الانتفاضة أيضا ذاك السبيل الوحيد المطروح للتعامل مع قضية فلسطين تحت شعار خطير غاية الخطورة وما زال مرفوعا حتى الآن، وهو خيار السلام الإستراتيجي، مع سائر ما يرتبط به، إسقاطا للجهاد بأهم أشكاله كما قررها الإسلام، وتقصيرا خطيرا في الإعداد العسكري لمواجهات حربية قادمة (والتقصير هنا يعني صنع المقدمات لكوارث عسكرية) وهي مواجهات محتمة، شئنا أم أبينا، ما دام يوجد في قلب أرضنا عدو، ناهيك عن أنه عدو مسلح، يطور أسلحته ولا يتردد لحظة عن استخدامها في غياب قوة رادعة له. وسيان إذن هل أعطي طريق التسليم الإستراتيجي لغاصب الأرض، أثناء اغتصابها وتهويدها والتنكيل بأهلها، عنوان سلام دولي أو إقليمي، وانفرادي أو جماعي، وسيان ما يشاع من تبرير مخادع له كالالتزام بقرارات دولية أو اتفاقات مباشرة أو إرادة أجنبية، فالمهم هو جوهر الاستسلام في هذا السلام، وهو المرفوض جملة وتفصيلا، لا سيما في حقبة الضعف، فالاستسلام عند الضعف يعني شروطا انتحارية قاتلة.

٤- والأبعد من ذلك والأهم أنّ الانتفاضة كشفت عن إرادة شعبية، فلسطينية وعربية وإسلامية، ترفض رفضا قاطعا الارتباط التبعي بالولايات المتحدة الأمريكية، بمختلف أشكاله، سيان هل أعطي عنوان مصالح وعلاقات ودية ما دامت تفتقد التوازن والنزاهة، أو أعطي عنوان الحاجة والاضطرار فما أسفرت الاستعانة بالدولة الأمريكية يوما إلا عن أضرار أكبر بمن استعان بها، أو أعطي عنوان الاضطرار بحكم تغيّرات دولية كما ظهرت النغمة الوليدة حديثا بعد تفجيرات نيويورك وواشنطون، بمعنى السير حيث تريد السطوة الأمريكية التي تصور نفسها وكأنها ثور هائج بسبب عمق الجرح الذي أصابها فحسب، وما هي بذلك، إنما كانت من قبل تلك التفجيرات وما تزال تمضي على نهج عدواني يستهدف بسط الهيمنة العدوانية عالميا.

موقع الانتفاضة من التغيير

لا بد من التنويه هنا أن رفض سياسات التبعية للدولة الأمريكية لا ينطلق من القول إن قضية فلسطين أهم شأنا من قضايا أخرى تتحقق فيها مصالح مشتركة مع الطرف الأمريكي، فالمسألة ليست مسألة تضحية من أجل فلسطين، بل يصدر هذا الرفض عن حقيقة أن سائر ميادين العلاقات بالأمريكيين باتت تحقق من الأضرار أضعاف ما تحقق من منافع محدودة، بدءا بالقواعد العسكرية، مرورا بالقروض المالية، وانتهاء بالاتصالات السياسية إذا تجنبنا كلمة ضغوط، والتأثير السلبي في المحافل والمؤتمرات الدولية، فالموقف المطلوب تجاه الأمريكيين مطلوب حتى ولو

تصورنا غياب قضية فلسطين عن الساحة، ولو أنها غابت فعلا لابتكرت السياسة الأمريكية ميادين بديلة تمارس فيها عداءها الذي بات إستراتيجيا منذ فترة لا بأس بها.

إن العرب والمسلمين، لا سيما الجيل الشاب الناشئ في ظل هيمنة حملات العولمة بهوية أمريكية أو عولمة الهيمنة الأمريكية بحملات جديدة، يدينون بالكثير لحدث الانتفاضة التاريخي، وللوعي الشعبي الذي عبرت عنه، ويجب أن يأخذ ذلك شكله الظاهر للعيان عبر التضامن المشترك والمحقق للأهداف المشروعة، من وراء سائر الحدود والحواجز، وهنا ليس المطلوب تقديم الدعم من طرف خارجي للانتفاضة، بل المطلوب هو الوعي الذاتي بموقع الانتفاضة الاندماجي من خارطة المتغيرات الجارية على أرض العرب والمسلمين في نطاق موقعهم من التطورات العالمية، فواقعهم وواقعها أجزاء عضوية متكاملة مع بعضها بعضا.

وهنا بالذات يبدو للعيان كم باتت مواقف التشكيك في الانتفاضة وجدواها هزيلة وواهمة، لا سيما تلك التي تقول إن الانتفاضة لا يمكن أن تدحر بالأحجار وبعض الرصاص آلة الحرب الإسرائيلية، فهذا صحيح إذا تحركت الانتفاضة وتحرك العرب والمسلمون بمنطق المشككين، فصورة الحجر مقابل الدبابة والشهيد الطفل مقابل متاريس الجنرالات وجنودهم، صورة بطولية قد لا يفقه المشككون مغزاها، إذ لا يستشعرون أو لا يريدون أن يستشعروا ولا أن يدرسوا ما يعنيه في عالم السياسة الواقعية ومدارسها كسرُ حاجزِ الخوف في واقع المواجهات والتعامل اليومي، وليس في أفلام سينمائية وروايات أدبية وقصائد حماسية.

١- إن هذه الصورة البطولية الجليلة تعبر عن روح الانتفاضة ولكنها لا تعبر -وحدها- عن منطق آلية التغيير الذاتي والحاسم كما يبديه موقع الانتفاضة بمجموعها من تاريخ القضية.

٢- الانتفاضة لا تدحر جيشا، ولكنها تصنع شعبا، ويستحيل انتصار جيش على شعب حي، كما يشهد التاريخ القديم والحديث، وعبر مختلف حقب تطور التقنيات العسكرية، وهذا بعض ما يفسر الرعب الراهن لدى بعض عقلاء الصهاينة وعقلاء الغرب عموما.

٣- والانتفاضة لا تطرح تلقائيا صيغة سياسية متكاملة وبديلة عن الصيغة التي جلبت من الأضرار والأخطار ما جلبت، ولكن الانتفاضة توجد إرادة قومية وإسلامية، وتوحدها، وهذا ما يصنع القرار على أرض المستقبل المنظور، وتلك سنة لا تتبدل في تاريخ الأمم، كلما اهترأت مرحلة سياسية سابقة، وظهرت إرهاصات ميلاد مرحلة أخرى.

٤- ليس المطلوب دعم الانتفاضة بحد ذاتها، بل المطلوب دعم التطور الجاري نحو مستقبل أفضل في المنطقة، والذي تشكل الانتفاضة جزءا عضويا منه، فمن يشكك ويثبط ويخذّل، ومن يمنع مظاهر التضامن المشترك في كل مكان، أو يحظر الدعم الفعال بمختلف الوسائل، إنما يطعن في مستقبل المنطقة بمجموعها، وليس في قضية فلسطين المصيرية المشتركة فقط، ولا يطعن في ظهر شعب فلسطين في مواجهته الميدانية فحسب، بل ويطعن في مصلحته الذاتية، فعجلة بناء مستقبل أفضل قد تحركت، ولا يوقفها تشكيك بل يعزل صاحبه عن مسيرتها، ولا يوقفها إجراء أمني وإن سبب الضرر والعراقيل، كما لا يمكن أن يوقفها عقم سياسي بات عاجزا عن إيجاد البدائل والخيارات المتعددة حتى في حدود أهدافه الضيقة، وذاك في عصر من الواقعية السياسية يجعل الاقتصار على أي خيار إستراتيجي وحيد ضربا من ضروب الانتحار السياسي لا أكثر.

واقعية انتحارية

لا نملك مواراة الاستغراب بل الاستنكار الشديد -ونتجنب كلمات أخرى أولى بالذكر في هذا المقام- لِما نرصده من تعامل مع قضية فلسطين، من جانب طاقم من الأفراد، هم أنفسهم الذين تعاملوا معها من قبل، وأوصلوها من أرض مغتصبة يجب تحريرها، إلى متاهات كامب ديفيد ومدريد وأوسلو، حتى جعلوا من الأرض بقعا متفرقة أشبه بالفسيفساء ما بين أقدام المستعمرين، ومن شعبها ألف عنوان وعنوان في المحاضر والاتفاقات، تائها ما بين بنود اللاجئين والمهجرين والنازحين والمشردين والعائدين والموطنين، وهم في سائر الأحوال كأهلهم في الداخل محرومون من التعبير عن إرادتهم بأنفسهم بدلا من التصرف بهم، بأسلوب الوصاية عليهم، دون حق مشروع ولا سؤال أصلا.

هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم متكلمين باسم هذه القضية المصيرية، هم أنفسهم الطاقم الذي جعل الحديث عن القضية على مستوى أمة تعدّ خمس البشرية، حديثا رجعيا أو عاطفيا لا قيمة له ولا حاجة لنا به، في نظرهم، ثم جعلوه على مستوى أمة عربية محيطة بفلسطين ويرتبط مصيرها بمصيرها، حديث دعم خارجي في أفضل الأحوال، أو حديثا مرفوضا في غالب الأحوال، بدعوى أنه حديث انفعالات قومية أو غير قومية، فلا جدوى منه في عصر الواقعية والعقلانية، وهو عصر يعتقدون أنهم هم وحدهم من بين بني قومهم الذين ولجوه وعرفوه وخبروه، حتى ولو كان ولوجهم على منحدر النكبات، والتنازلات، إلى درجة أنهم لا يجدون على عتباته أو في زاوية من زواياه مكانا ضيقا ما، يحفظ ماء الوجه، بعد مسيرة النكبات حتى الحضيض، من نكبة ١٩٤٨م العسكرية، حتى النكبات السياسية الأخيرة، الأفظع مضمونا والأنكى بعواقبها المستقبلية.

هم الواقعيون والعقلانيون وسواهم عاطفي! لا سيما إذا كان يتكلم بمثل هذا الكلام في مثل هذه السطور، أو كان يهز قضبان من يلغي الجهاد في عصر السلام المزعوم، الذي لا ينبغي ذكر الجهاد فيه، إنما يجب مواجهة فنون تقتيل الصغار والكبار بفلسطين، بمنهجية تفاوضية حكيمة!

ما أسخف هذه الواقعية والعقلانية، التي تقول يجب أن نسالم أو نستسلم بشجاعة، من أجل ماذا الشجاعة؟

ما الذي يبقى من الشجاعة بعد التسليم، ولنقل التسليم بنصف الأرض أو بعضها، ونصف الشعب أو بعضه، ونصف الحقوق أو بعضها، ونصف المقدسات أو بعضها، فهل الشجاعة في المشاركة في تجريد أنفسنا من كل قدرة على التحرك في المستقبل لحماية ما (قد) نحصل عليه من النصف أو البعض أو جزء ما من هذا أو ذاك، أم الشجاعة للمشاركة في نصب السدود أمام أي إمكانية لتحصيل ما هو أكثر منه؟

هم الواقعيون والعقلانيون! وكم تبدو هذه الكلمات على ألسنتهم وفي واقع سياساتهم فارغة من أي مضمون، عندما ننظر فيها بمقاييسها ومعاييرها الأصلية، أي على ضوء ما يستند إليه الساسة الواقعيون والعقلانيون ممن يعتبرونهم أساتذة السياسة الواقعية والعقلانية المعاصرة!

كم جرى تفريغ هذه الكلمات من مضامينها، ومن ذلك على سبيل المثال ما نراه بالمقارنة مع ما نعايشه عند متابعة ما يجري من أحداث على الساحة الدولية ولا سيما الغربية -وقد أصبح الغرب في السياسة قبلتهم- ومتابعة كيف يتعامل أولئك الساسة الواقعيون العقلانيون الغربيون مع تلك الأحداث، إذ نجد من أول أبجديات الواقعية والعقلانية

المعتبرة دوليا أن كل زعيم من الزعماء، إذا أخطأ في فَهم ما يريده من يقودهم، سواء كانوا حزبا أو شعبا أو نقابة أو دولة، أو إذا أخطأ التعبيرَ عما يريدون، أو عجز عن تحقيق ما أعلن من هدف، خلال فترة زمنية معقولة، ترك مكانه لسواه، أما إن كان من أصحاب الأطماع فسيسقط رغما عنه، ونجد فيما نجد أيضا، كيف يعلم الجميع أن للتجربة في عالم السياسة الواقعية العقلانية، فرصة واحدة، فإما أن تنجح فتُتابع، وإما أن تُخفق، ولو مرة واحدة حتى وإن نجحت من قبل عشرات المرات في تحقيق أكبر الأهداف، فإذا كنتَ صادقا في خدمة القضية التي تتزعمها، يصبح معيار صدقك أمام الناس جميعا، هو أن تتخلى عن موقع الزعامة والقيادة لسواك فور الإخفاق الأول. أما إن لم تفعل -وأنت سياسي واقعي عقلاني في أرض الغرب- فمن المخجل المؤلم، أنه سرعان ما يشبهك أهل السياسة والإعلام، وكذلك العلماء المتخصصون في الجامعات والمعاهد، بأولئك الزعماء في تلك البلدان المتخلفة التي جعلت من الواقعية العقلانية متمثلة في مجرد بقاء الزعماء، سيان ما صنعوا، وكم مرة أخفقوا، وكم نكبة سببوا.

عن أي واقعية وعقلانية تتحدثون؟ هل بقي مزيد من الإخفاق أم بقي مزيد من التجارب؟ أم بقي مزيد من اللحاق بأذيال رئيس بعد رئيس في واشنطون إلى حيث هو راحل، بينما يدير أولئك العقلانيون أنفسهم الظهور للشعب، وهو يقدم الشهيد تلو الشهيد، ويعبر عن استعداده للمزيد من التضحيات، متمنيا أن ينفسح المجال ليقود نفسه بنفسه، دون أن تتحول الملحمة التي يكتبها بدمه على طريق استقلال أرضه، إلى فتنة مع بعض بني جلدته، هي أول ما يتجنبه المخلصون، ويتمناه العدو، ويستفزهم للوقوع فيه أولئك الذين يعتبرون أنفسهم في القمة من الواقعية والعقلانية.

إذا كانوا لا يرون رأي العين بأنفسهم، أفلا يشعرون أنهم منذ زمن طويل يتحركون في واد، بشجاعةٍ عجيبةٍ وإصرارٍ أعجب، وأن الشعب يتحرك في وادٍ آخر، بشجاعة حقيقية؟

ألا يستشعرون إحساساً إن لم يستنتجوا منهجيا، أن ما يصنعون لم يعد له علاقة بسياسة ولا حصافة، ناهيك أن تكون له علاقة بكفاح ونضال وجهاد، إنما هو ضرب من ضروب الانتحار السياسي، مع سابق إصرار، ولا نقول مع سابق تخطيط، فالتخطيط لهذا الانتحار السياسي يجري على ما يبدو في واشنطون وتل أبيب، وطوق النجاة موجود، ويأبون الإمساك به.

عبر عدة عقود من الزمن، كان التصرف الرسمي بقضية فلسطين المحورية المصيرية وتحت مختلف العناوين، يجري بمعزل عن إرادة الشعوب العربية والإسلامية، وهي في فلسطين وخارجها صاحبة الحق الثابت بممارسة حق المصير وحق التحرير، بمفهوم القانون الدولي، كما أنها هي التي تحمل الأمانة للحفاظ على الأرض المباركة ولتحريرها، بمفهوم الإسلام، وهي أيضا صاحبة الكلمة الفصل بمقاييس المسيرة القومية.

وكان غالب من يتحدث عن القضية ويتصرف بها، يزعم لنفسه أنه إنما يتحرك باسم تلك الشعوب، أو يتصرف وفق إرادتها. ولكن.. باسم تلك الشعوب المسلمة بغالبيتها طُرحت شعارات الهبوط بالقضية من موقعها الإسلامي الجامع الأصيل إلى موقع القضية القومية العربية الأولى، ثم باسم الشعوب العربية تلك طُرحت شعارات الهبوط بالقضية من موقعها في صدارة الدعوات والتيارات والأحزاب والدول القومية، إلى مشكلات مجزأة مفتتة، ما بين

نزاع فلسطيني-إسرائيلي، وأزمة شرق أوسطية أي مشكلة حرب وسلام وليس اغتصاب وتحرير، وخلافات حدود واتفاقات وليس صراع حق ووجود، وفي كل مرحلة من تلك المراحل كانت النقلة تجري مصحوبة بعملية غسيل دماغ جماعية جديدة، وبموجةٍ من الشعارات المخادعة الجديدة، ما بين بريق الصياغة الإيجابية وحضيض المضمون الواقعي للمقصود منها، ولنتأمل قليلا في تلك اللعبة الانتحارية.

لنتأمل في شعار إزالة آثار العدوان مثلا، وكان المقصود به عدوان عام ١٩٦٧م، فكان المعنى الضمني هو التخلي الرسمي عن شعار تحرير الأرض المحتلة عام ١٩٤٨م، وهذا ما تحدثت عنه الاتصالات الرسمية دوليا، ثم انتقل إلى الإعلام وتصريحات الساسة الرسمية المحليين علنا من بعد.

أو لنتأمل في شعار الممثل الشرعي الوحيد، وقد بيع إعلاميا باعتباره قرار الاعتراف بالمنظمة، وهي التي نشأت من الأصل بهدف التحرير الكامل، ولا مسوغ لوجودها إذا أسقطت الهدف، بينما كان المقصود الواقعي من ذلك الشعار، تخلي الدول العربية عن مسؤوليتها المباشرة في القضية، وقد جرى ذلك فعلا عبر عدة نقلات نوعية، مع رفع شعارات دول المواجهة والمساندة، فدول التصدي فدول الردع فدول الطوق، وانظر مدى الحكمة الواقعية المدروسة في الهبوط الموازي لذلك التطور، بمعنى الكلمات المستخدَمة في الشعارات، منذ الجهاد قديما، إلى النضال والفداء والكفاح ردحا من الزمن، ثم هبوط المستوى إلى المواجهة فإلى التصدي فإلى الردع، فإلى الطوق بمعنى الكلمة الجغرافي.

ثم أخيرا وفي عهد السلام الشجاع على درب كامب ديفيد ومدريد وأوسلو كانت النقلة الكبرى بتزييف الشعارات والمصطلحات مباشرة، كشعار السلام العادل، لترسيخ أركان أشد ألوان الظلم التاريخي في المنطقة، وشعار الشرعية الدولية المزيفة عبر تصويرها وكأنها مطابقة لقرارات هيمنة القوة في مجلس الأمن الدولي، لتحويل القضية من قضية اغتصاب بالقوة لا تقره مبادئ الشرعية الدولية -وهي مرجعيتها في الأصل- إلى مسألة نصوص مختلف عليها في قرارات مجلس الأمن، أي تلك التي يصدر العدد الأعظم منها عن أحد الأجهزة الدولية، أي عن إحدى أدوات تنفيذ الشرعية الدولية وليس تمثيلها، وهو يتصرف وفق موازين القوة أولا وأخيرا، فيوافق الشرعية الدولية حينا ويخالفها غالبا.

هكذا تتابع التزوير والتزييف مع شعارات ومصطلحات أخرى كالحقوق الشرعية الممسوخة، والتطبيع للتعويد على أوضاع وعلاقات شاذة؛ ولكن جميع ذلك لم تكن له قيمة حقيقية -ولن تكون- رغم ثقل وطأته الآنية على هذا الجيل، ورغم فداحة المآسي الفردية والجماعية التي رافقته وارتبطت به، ورغم ما ترتب عليه من فرض مختلف ألوان الأغلال الخارجية والذاتية على شعوب المنطقة ودولها وتياراتها.. لم تكن له قيمة التغيير التاريخي الفعلي، فقد كان القاصي والداني، والعدو والصديق، يعلم باستحالة استقرار ما يُصنع، فهو يخالف إرادة الشعوب مخالفة مباشرة، وهو حصيلة ما يُخطط له وينفذ بمعزل عنها، بل هو المستحيل تمريره عنتا وتزويرا لولا تقييد تلك الإرادة بمختلف الوسائل الاستبدادية والترهيب والبطش والقمع، وكذلك بأساليب الإغراء والإغواء والتضليل في آن واحد، ثم هو في مجمله وضع شاذ لا يمكن أن يستقر، سيان كم قطع على طريق الانحراف بالقضية، مرحلة بعد مرحلة، في حقبة الهزائم العسكرية والنكبات، وفي منحدر التراجع المتتابع والتنازلات، وفي مسلسل الاتفاقات المنحرفة والمفاوضات.

سقوط الأقنعة

لقد انتهت تلك اللحظة التاريخية من عمر القضية المحورية، انتهت فجأة كما بدا لِمن لم يتابع أسباب التغيير في الواقع الشعبي، وتراكمها منذ نكبة ١٩٦٧م إلى ما بعد أوسلو الثانية، بدا كما لو أن انتفاضة الأقصى ولدت هكذا دون سابق إنذار، وهبت بسبب شرارة غير منتظرة.

وما كانت الانتفاضة قطعا ولن تكون مجرد حدث يجب -أو يمكن- تطويقه بوسائل أمنية أو سياسية كما يسعى بنو إسرائيل وبنو سام ومَن والاهم، بل كانت مفصلا تاريخيا حاسما بين حقبتين، ولقد حققت إنجازها الأول منذ اللحظة الأولى لاشتعالها، إذ أسقطت سائر الأقنعة دون استثناء.

والواقع أن تعبير سقوط الأقنعة نفسه اكتسب من خلال الانتفاضة معنى واقعيا جديدا، فلم يعد وسيلة من وسائل المهاترات وتبادل الاتهامات، غالبا ما بين باطل وباطل، بل أخذ الحدث مغزاه وحمل التعبير مضمونه كاملا على أكثر من صعيد:

- ظهر الإسرائيلي دون قناع، أي في واقع أسلوب التفكير والتصرف لدى سائر الاتجاهات الصهيونية في السلطة والمعارضة.
- وظهر الأمريكي عدوانيا أكثر من اليهود الغاصبين أنفسهم.
- وظهر إصرار السلطة الفلسطينية على البقاء في المتاهات، بعد أن أعادها العدو غصبا إلى موقعها الذي كان ينبغي أن تبقى فيه من الأصل، على الجبهة الأخرى.
- وظهر العالم العربي متخبطا عاجزا عن الاجتماع للتصرف المشترك على نقيض قدرته الفائقة على سرعة التجمع والالتقاء بإيعاز أمريكي لمكافحة من يُرهب الصهاينة ومَن وراءهم.
- كما ظهر العالم الإسلامي دون قناع، ككتلة كبرى، ولكن دون قلب إسلامي نابض يحركها.

إنّ الجهة الوحيدة التي لم يسقط قناعها، هي الإرادة الشعبية الجامعة، إذ ما كانت تحمل قناعا، وإنما سقطت الغشاوة عن عيون مَن لم يكن يراها فرآها، كما لم يكن يحسب حسابها واعتبرها مواتا ففوجئ بها حية نابضة، فوجئ بالإرادة الشعبية الجامعة ما بين مليونين من المتظاهرين على ساحل بحر الظلمات، ومثلهم في الأرخبيل الإندونيسي، وأمثالهم في أنحاء العالم الإسلامي وفي أوساط المسلمين حيثما وجدوا من الأرض.

واقعيا نقول: ربما ما زال في الإمكان أن يُصنع بعد مسيرة انتفاضة الأقصى بقضية فلسطين شبيه ما كان يُصنع بها قبل ذلك التاريخ، أي ربما تتعرض لمزيد من الطعنات في النحر والظهر، ولكن لم يعد يمكن تسمية الطعنة الغادرة وطنية وإخلاصا، ولا تسمية الهزيمة المنكرة انتصارا مؤزرا، ولا تسمية تنفيذ إرادة الهيمنة الأمريكية تلبية للإرادة الشعبية، ولا تسمية التسليم سلاما، والخضوع مَجْدا، والظلم شرعية دولية، وألوان الخيانات والموبقات تطبيعا.

لقد أعادت الانتفاضة إلى الأشياء مسمياتها، هكذا علنا جهارا، فالأبيض أبيض، والأسود أسود، ولم يعد يمكن المخادعة بما يسمّونه اللون الرمادي، فما هو إلا خليط فيه بعض الحق، ومعظمه الباطل، وما كان في يوم من

الأيام حلا وسطيا يصنعه سائر الناس، كما يزعم أدعياء الواقعية والعقلانية متسائلين ببراءة الثعالب: فعلام لا نصنعه ونقبل به نحن أيضا؟

وكم من إجرام جرى تمريره تحت عنوان الحلول الوسطية الرمادية اللون تلك، وما كانت يوما وسطية حقا وعدلا، ولا بمنطق فن الممكن كما يزعمون، ولا بموازين حقيقة ما نملك من إمكانات وهم يزعمون العجز.. ما كانت تلك الحلول الوسطية يوما بين طرفين متوازيين أو متكافئين في عدوانهما أو في سلامهما، حتى يلتقيا في منتصف الطريق في مكان ما، بل كانت على الدوام انتقاصا من حق المعتدى عليه لحساب المعتدي، من حيث أصل القضية، وكذلك انتقاص مماثل إضافي من حيث تفاصيلها مع استمرار الطرف المعتدي في عدوانه ومتابعة توسعه ومواصلة هيمنته، فأين هو موضع الحل الوسطي الرمادي اللون في نظر الواقعيين والعقلانيين؟

كم من عمليات غسيل الدماغ الجماعية جرى تنفيذها تحت رداء الواقعية، حتى أصبحت واقعيتنا نحن غير واقعية بني البشر الآخرين؛ أصبحت تتمثل في أن نقبل بكل واقع جديد متغير يصنعه سوانا و يُبقي لنا فيه زاوية أشد ضيقا مما سبقها؛ وصارت عقلانيتنا غير عقلانية بني الإنسان من غيرنا، حتى صار كل تحرك نفكر به أو يخطر لنا في أحلامنا أو تتجرأ على ذكره ألسنتنا وأقلامنا، من أجل مجرد المشاركة بصورةٍ ما، في صنع واقعنا أو واقع قضيتنا المحورية بأيدينا، وإزالة بعض الظلم الجاثم فوقنا، صار ذلك إرهابا، حتى وإن كان المتهم بالإرهاب لا يرفع سيفا بل قلما، ولا يلوح بقنبلة بل بكلمة، هذا على افتراض أنه بقيت أمام المتهم فرصة للكلام، فتهمة الإرهاب، والمحاكمة، والإدانة، وتحديد الحكم، جميع ذلك يتم مسبقا، وتستورده النخبة العليا من زعاماتنا، كما تستورد السيارات الفاخرة والأفلام المتحضرة، وما علينا سوى الاستمتاع بمكافحة هذا الإرهاب المزيف المزعوم تحت عنوان مكافحة إرهابٍ حقيقي يمارسه من يمارسون عنفا غير مشروع، مع تنفيذ المطلوب منا بحذافيره، ضد أنفسنا، وصياغة الحيثيات بالصورة المناسبة لتسويغ هذا السلوك أمام تلك الإرادة الشعبية المكبوتة أو المذهولة، وكأنها لا تصدق أن ما لا يمكن أن يكون في أمة من الأمم، قد أصبح جزءا من واقعنا المعاش.

معالم جديدة

لقد تنبهت الإرادة الشعبية من غفوتها بعد إساءة الظن فيها، واعتبارها من الموات ومن الماضي البائد، أو لنقل بكل واقعية إنها تململت رغم القيود والأغلال المفروضة، وشعر الزعماء بوجودها وحارَ في تقديم المشورة لهم المستشارون والخبراء من مختلف الجنسيات، إذ كيف يتعاملون مع تلك الظاهرة الفريدة من نوعها!

كأنّما العجب العجاب هو أن يتحرك العرب والمسلمون في بضع مظاهرات في الشوارع، وفي بعض زنازن الجامعات وراء القضبان، فضلا عن المساجد!

كأنّ أولئك الواقعيين لا يصدقون ضياع جهد ربع قرن وأكثر من التضليل والتيئيس وغسيل الدماغ، وأغرب من ذاك في أعين الغريب عن فهم هذه الشعوب، أن الثائرين شباب، ولد بعضهم ونشأ معظمهم في محاضن السلام والتطبيع، من صنع أمريكي مستورد أو صهيوني-عربي مهجّن!

تململت إرادة شعوبنا العربية والإسلامية فجأة فكانت من وراء ولادة مؤتمرات قمم عربية بعد طول انتظار، وكان انعقادها أمرا عصيّا خشية من عصيان الولايات المتحدة الأمريكية، وإن بقي الاعوجاج في عَقْدها ونتائجها.

ولكن كيف ستكون الأمور عندما تتبع ذاك التململ، صحوةٌ شاملة ومحتمة لتلك الإرادة الشعبية؟

لقد آن أوان الماضين وراء سرابٍ فقد حتى بريق السراب، أن يدركوا أن بين أيديهم حقائق ووقائع جديدة، إن لم يضعوها في حسابهم فلن يفيدهم سواها، كما لن يفيد الغاصبين عدوانهم وإن ظنوا حصونهم مانعتهم، فإنهم -بما يصنعون الآن- بدؤوا يخربون بيوتهم بأيديهم.

آن الأوان أن يدركوا أن تاريخ القضايا المصيرية لا يقاس بالشهور والسنوات ولا بأعمار الزعماء، بل بما تصنع الأجيال وقد انفصم ما بينهم وبين الجيل الذي يحكمونه، وما أبناء فلسطين إلا جزء من جيل البلدان العربية والإسلامية هذه الأيام، وهم معه على درب آخر، غير الذي أسقط فلسطين وما حولها.

آن الأوان أن يدرك الماضون في ركب بقايا زعماء أمريكيين وغربيين وصهيونيين أن منحدر النكبات والهزائم قد انتهى، وبدأ الصعود شعبيا بمعزل عنهم، فمن لا يلحق بالشعوب ينتحر سياسيا، ولن يستطيع هو ولا سواه، اليوم ولا في المستقبل أن يمرر عملية نَحْر قضية فلسطين على مذبح أمريكي أو غربي أو صهيوني.

لقد تبدل اتجاه المسيرة التاريخية بالقضية.

أم أن رؤية ما يجري رؤية مباشرة تحتاج إلى دليل؟

ألا يوجد ما يكفي من الأدلّة المنهجية الموضوعية يوميا في ساحات فلسطين وشوارعها، وفي بلدان أخرى قريبة منها أو بعيدة عنها.

بل نجد الأدلة حتى فيمن يركب الموجة الشعبية كما يقال، فإنما يعطي بذلك الدليل على حقيقة اتجاه الموجة الشعبية التي يحاول ركوبها.

ثم ألا يوجد ما يكفي من الأدلة المنهجية الموضوعية في كل نكهة طعام أمريكية أصبح يعافها الشبيبة في المدن العربية والإسلامية، وكل مظهر من مظاهر التبرؤ من الارتباط بالصهيونية، يحاول أن يؤكده أصحاب المصالح المادية من وراء هذا الاسم أو ذاك المشتبه به عند الشعب، ألا تعبر موجة المقاطعة هذه عن الإرادة الشعبية وحقيقة ما تريد؟

ربما أوهم انحسار حجم المظاهر الجماعية الأولى للاحتجاجات، بعضَ المسؤولين من الساحة الفلسطينية والعربية، فظنوا أنهم تجاوزوا عنق الزجاجة، وأن ما كان ليس إلا أزمة مؤقتة أطفأتها بيانات القمم وبعض التصريحات الساخنة والخطوات الصغيرة المنفوخة بأسلوب استعراضي، على أن من يتوهم ذلك يخاطر مخاطرة كبيرة بغرقه في أمواج الأوهام، فلا الانتفاضة ولا التضامن معها عبارة عن مشاعر عاطفية يمكن تهدئتها، ولم يعد يمكن أمام مستوى الوعي الفلسطيني والعربي والإسلامي اصطناع هالات النصر حول الهزائم، ولا تسويق التسليم بمجرد وضع عنوان السلام فوقه، بل آن الأوان أن يدرك الواهمون، أن كلمة ثوابت ما زالت تحتفظ بمعناها الأصيل ومضمونها الحقيقي لدى الشعوب، وهي التي حركت المقبلين على الشهادة وحركت المتضامنين معهم ببعض السبل الممكنة، وما تزال توجد سبل وإمكانات وطرق عديدة، وأشدها وطأة ما يمكن أن يأتي كالطوفان بصورة مفاجئة للواهمين، على غير انتظار.

وأستودعكم الله ولكم أطيب السلام من نبيل شبيب